الجماعة الوطنية :
الأفق الآدمى ، بين الضيق والاتساع ! (*)

قد رأينا بطوافنا السريع فى مدونات الأديان ، أن الإسلام والمسيحية بريئان من أى أسباب للحساسية أو التباغض أو العداوة أو الاحتقان .. كلاهما ولا نتحدث عن العقيدة دوحة وارفة للمحبة والسلام والإخاء .. على هذا عاشت الجماعة الوطنية المصرية رغم غيوم عارضة هبت لظرف أو لآخر سرعان ما انقشعت .. فى طفولتنا وصبانا ، لا زلت أذكر ويذكر جيلنا ، أننا فى تداوينا لم نكن نفرق فى الاختيار بين طبيب قبطى وطبيب مسلم ، ولا كان يستوقفنا فى قضايانا أن يكون المحامى مسلما أو قبطيا ، كان الدين حاضرا فى العقيدة والعبادة والطقوس ، ولكن لم يؤثر سلبًا على المعاملات التى لم تفرق بين مسلم ومسيحى إلاّ فيما يفترق فيه وبه البشر من مزايا أو عيوب تقرب هذا أو تبعد ذاك فى دائرة الاختيار .. فلم يكن البعد الدينى واردًا على الإطلاق فى اختيارات الناس لأرباب المهن والحرف والمتاجر وغيرها .. هذه السجية التى عشنا بها زمنا طويلًا ، قد بدأت تنسحب أو تكاد .. هذا الانسحاب أو التراجع علامة تستوقف النظر !

اتفاق الناس محال ، واختلافهم واقع مشاهد لا مفر منه .. فى القرآن المجيد: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾

(*) الأهرام ٢/ ٢/ ٢٠٠٦.

[هود] .. فلا غرابة فى اختلاف الناس .. منذ بداية الخلق والناس يختلفون ويتمايزون فى كل شىء .. يوجد المؤمن والملحد ، واليمينى واليسارى ، والعادل والظالم ، والرحيم والقاسى ، والمقتصد والمبذر ، والكريم والمقتر ، والسوى والشارد .. هذه النماذج الآدمية وغيرها قد دخلت إلى باحة الأديان جميعها ، الكتابية وغير الكتابية .. يحمل كل منها ما معه من صفات وقدرات ومواهب وملكات . فيهم العالم والجاهل ، والمثقف والضحل ، والذكى والبليد ، والموهوب والعاطل من الموهبة ، وفيهم أيضا الغنى الفقير ، والنسيب واللقيط .. كل ذلك واقع مشهود غير مستغرب ، ولكن اللافت أن تجد بين هذا الخليط : المتسامح والمتشدد ، المتفتح والمتعصب ، المعتدل والمتطرف ، فما هى البوصلة التى تميل بالناس إلى السواء والقصد والاعتدال ، أو تشدهم إلى الشطط والتطرف والتعصب والجموح ؟!

لا شك أن العقل والعلم والثقافة والمعرفة ، تصب فى صالح الاعتدال ، ولكنا نرى عاطلين من هذه المزايا ، ومع ذلك يتسمون بالقصد والاعتدال ، بينما قد نرى من أهل العلم والمعرفة من يجمح إلى التطرف والتعصب ، ويكون تعصبه أو تطرفه أخطر ، لأنه يملك ما يستطيع به أن يخدّم على ما يريد !

يبدو لى أن مساحة «أفق «الآدمى ضيقًا أو اتساعًا هى العنصر الفاعل فى رؤيته وموقفه ، هذا الأفق محصلة عناصر عديدة ، يدخل فيها العقل والعلم والثقافة والمعرفة ، ويدخل فيها أيضًا النسيج الشخصى والبيئة والتجربة والظروف الاقتصادية والمعيشية ، والتركيبة النفسية والعصبية ..

فى «أفق» الآدمى تصب كل هذه العوامل فتشكله ، وعليها تتحدد مساحة الأفق الفردى والجمعى عراضةً وعمقًا ، أو ضيقًا وضحالةً .. ولأن المكونات متعددة ومختلفة ومتنوعة ، لذلك فإن «سعة الأفق «قد تأتى لغير العالم من واقع تكوينه وتجربته ، فيمتلك سعة وسماحة النظر ورغبة الرؤية ونعمة الفهم الذى لا يعز على من يفكر بصدق وسماحة وإخلاص !

سعة الأفق سجية مانحة للقدرة على رؤية كل الألوان والأطياف والتضاعيف ، وباب رحب للنظر العريض ، وصمام واق من الانغلاق والتطرف والتعصب والجموح والشرود .. واسع الأفق لا يبادر مندفعًا منغلقًا إلى رأى أو اتجاه ، وإنما يفتش وينقب ويبحث ويتأمل ويوازن ، وربما تردد كثيرًا أو قليلًا بين ما استقر عليه وبين ما تركه وعافاه ، لا يتعصب لما ارتآه ، لأن أفقه قد هداه إلى أن الأمور لها أوجها متعددة ، وأن المسائل لا ترد إلى سبب واحد ، وأن القدرات البشرية نسبية ، فلا يضيق برؤية وحق غيره فى أن يكون له منظور أو رأى أو معتقد آخر !

يأتى التعصب من «ضيق الأفق» ،لأن الأفق المحدود أو الضامر أو المتقلص لا يرى إلاّ من زاوية واحدة ، يعتقد أنه بها يملك وحده زمام الحقيقة ، يراها هو ولا يستطيع أن يراها سواه ، فلا يبدى فقط رأيه فى رؤية أو معتقدات الآخرين ، وإنما يصدر أحكاما غير قابلة للنقض أو المراجعة أو المناقشة ! ظواهر التطرف بأنواعها : الفكرية ، والدينية، والمذهبية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ترتد جميعها إلى أفق ضيق اعتنق ما يراه ورفض رؤية غيره رفضًا جازمًا جامدًا لا يتزحزح

ولا يقبل نقاشًا لا يطيق حوارًا ! .. يحسب الحوار أو الاختلاف كفرًا أو انتقاصًا من قدره وقوة امتلاكه هو للحقيقة .. لا يستطيع أن يدرك أن حقه فى معتقده ، يقابله حق الآخرين فى أن تكون لهم معتقداتهم .. هذا الضيق أو التعصب لا يقود فقط إلى الاحتقان بين أهل الأديان ، وإنما قد يقود إلى اختلافات بل واحتقانات بين أهل الديانة الواحدة .. إلى هذا تعزى الانشقاقات أو المذاهب أو الطوائف أو الملل أو الفرق المتفرعة عن الأديان ، بقى بعضها فى دائرة الاعتدال والاختلاف الفقهى ، واشتط بعضها إلى خلافات ومنافرات بل وعداوات تاه فيها الدين نفسه وسط عوادم التناحر والتصادم وانتصار كل لما يريده ولا يفهم ولا يستطيع أن يفهم سواه !!

مساحة الأفق الآدمى ، خاصية متعدية مانحة ، تؤثر سلبا وإيجابا ، ويتحدد تبعًا لها ، ضيقًا أو اتساعًا ، قوةً وصفاءً بوصلة الآدمى وقدرته على الرؤية من جوانبها المختلفة ، وحدودها المتنوعة .. حين تتسع الرؤية ، متزاوجة بالعقل والفهم ، تضمر ثم تتلاشى الأسباب الوهمية للاحتقان ، وتتنامى القدرة العاقلة لتحليل وسبر ومعالجة ما عساه يكون من أسباب تستوجب الإيضاح أو العلاج .

*****